اللغة وأثرها في حماية الفكر من الانحراف

إعداد

د. محمود رفعت الشهابى

مما لا شك فيه أننا نعيش هذه الأيام في أزمة، والأزمة التى نعيشها هذه قد أفرزت هذا البلاء الذى نعانيه وهو كارثة العنف والتطرف تلك الكارثة التى منى بها مجتمعنا.

ويرى هذا البحث أن الأزمة التى أنتجت هذه الظاهرة وكانت السبب المباشر لها هى في المقام الأول (أزمة لغوية).

وهنا يبرز أمامنا سؤال أليست لدينا لغة هى محور حياتنا، بها نتفاهم ونتعامل، وبواسطتها تتم كل متطلباتنا؟ الجواب نعم بلا شك فلا يمكن لأى مجتمع إنساني أن يخلو من اللغة، غير أن اللغة التى نفتقدها ونعانى من عدم وجودها بصورة تفى باحتياجاتنا هى اللغة الأدبية فلكل مجتمع لغتان لغة بسيطة ولغة راقية ولكل منهما ميدان، ولكل منهما وظيفة يحتاج إليها المجتمع[1] وكلاهما ضرورى واحب أن انبه إلى أن المقصود باللغة البسيطة ليست اللغة العامية بل المقصود اللغة المباشرة التى تخلو من الخيال والعاطفة والمجازات والكانايات أى أنها نقيض (اللغة الأدبية).

وهذه اللغة المباشرة هى لغة العلم التجريبى الطب والهندسة والكيمياء والزراعة... الخ.

---

(1) راجع- ريتشاردز- مبادئ النقد الأدبى- ترجمة الدكتور مصطفى بدوى (المقدمة).

وكما نعلم هذه العلوم بها قوام الحياة ومن البدهيات أن لغة العلوم من الضروريات، ولكن إذا كان الإنسان في حاجة إلى هذه اللغة لتطوير مجالات المدنية والتكنولوجيا هو أيضا في حاجة ماسة إلى اللغة الأدبية التى بها يسمو، وبواستطها تتهذب مشاعره، وعلى هدى منها ترتقى غرائزه ويرى (ريتشاردز) وهو من النقاد الإنجليز العالميين في كتابه (النقد الأدبى) أن اللغة البسيطة المباشرة وإن كانت لغة العلم التجريبى إلا أنها ليست باللغة الراقية، ولقد ضرب المثل على ذلك ويمكننى أن أوضح المثل الذى ضربه بعد تطويعه للغتنا ومفاهيمنا المباشرة. وهذا المثل التوضيحى بين اللغة البسيطة المباشرة واللغة الأدبية التى اعتبرها (اللغة الراقية) هو أن اللغة الأدبية لا يمكن أن تغنى عنها الإشارة أو الرمز، أما اللغة التى يمكن الاستغناء عنها بالإشارة أو الرمز فهى وإن كانت لغة العلم التجريبى إلا أنها ليست اللغة التى تدل على سمو النوع الإنسانى لأن المخلوقات الأخرى المتدنية غير الإنسان تستعمل هذه اللغة . ولسوف أضرب مثلا توضيحيا للغتين غير المثل الذى ضربه (ريتشاردز) ليتناسب مع مفاهيمنا.

على سبيل المثال؛ لو سأل إنسان آخر: كم تكون الساعة عندما تحين صلاة الفجر فيكون الجواب عندما تحين صلاة الفجر تكون الساعة الخامسة.

نلاحظ أن الإجابة هنا تضمنت سبع كلمات، وقد يمكننا الاستغناء عن هذه الكلمات السبع بكلمة واحدة وهى الخامسة بل يمكننا ألا نتكلم أصلا ونشير بالأصابع الخمس، ولا ينقص الجواب في دلالته على الإفهام شيئا، بل يمكننا أن نلجأ إلى الرمز فنكتب العدد الدال على خمسة ويكون المعنى قد تمت تأديته، ومثل هذه اللغة وإن كان لها فعالية في التقدم التكنولوجى حيث العلوم التجريبية الحديثة تقوم على هذا النوع من اللغة (معادلات وأرقام) إلا

أن هذه اللغة ليست اللغة الراقية في حد ذاتها من حيث كونها لغة، أما اللغة الراقية فيمكننى أن أوضح المثل لها بعبارة قد يقولها شخص لآخر (أنت فجر أيامى) ثلاث كلمات فقط لكنها لا يمكن أن تختصر، ولا تنوب عنها الإشارة ولا يكفى الرمز في الدلالة عليها، بل إن هذه اللغة تزاد ولا تختصر تكبر وتنمو في مشاعر السامع ولا تصغر وتتقلص، تتضح فيها المعانى ولا تبهت، لأن المتلقى سيهتز وجدانه بالعديد من المفاهيم لدى سماعها سيقوم تلقائياً بالمقارنة بين الليل والظلام، والمقابلة بين وحشة الليل وكآبته، وبهجة النهار وأنسه، بين الموت الذى عاشه المرء في الليل وبين الحياة والحيوية التى تبدأ مع الفجر، بين الزمن الذى انقضى ولم يعد فيه آمل للإنسان يرجوه وبين الميلاد الذى سيبدأ ومعه الأمنيات والرجاء ونظل نضرب أمثلة عديدة لعبارة من ألفاظ قليلة ومع ذلك تستغرق مدلولاتها أضعاف أضعاف تلك الكلمات وكلها تهز نفس المرء، وتثير خياله، وتجعل عاطفته تتألق، ووجدانه يموج بأشياء وأشياء، وإذا تحقق هذا الشئ سوف نعثر على الإنسان، إذن هذه اللغة تصب في الإنسان الأحاسيس الطيبة وتثبت في نفسه مشاعر الخير بهذه اللغة انتقل الميراث الأخلاقى الجمالى من جيل إلى جيل، ومن مجتمع لآخر، ومن أمة لسواها.

أما إذا وقفنا بالإنسان عند لغة (التكنولوجيا) فقط وقد سبق أن قلنا عنها: إنها لغة الرمز أو الإشارة فسيصبح الإنسان كالآلة والآلة معرضة للخلل والخطأ، وإذا حدث هذا أدت إلى الدمار والهلاك.

كلنا نذكر ما حدث للمفاعل النووى الروسى (شيرنوبل) بسبب خطأ مزلفة التكنولوجيا هذه ولا زالت البشرية تعانى من أثار هذا الخطأ حتى الآن، والإنسان إذا اقتصرت حياته على لغة التكنولوجيا هذه أصبح قابلاً

للتدمير كالآلة التى أصابها الفساد بل يكون أنكى وأشد ومن العسير إصلاحه، ورب قائل يقول: "إذا ازدهرت لدى الإنسان لغة الأدب يمكن أن تؤدى به إلى الفساد أيضاً كما أنها يمكن أن تؤدى إلى الخير فالأدب ليس خيراً كله فكم تتردد عبارات من قبيل هذا من الأدب المكشوف، ذلك أدب مدمر، هذا شاعر يجنى على الأخلاق غير أن هذا النوع من الأدب تيار ضئيل في سجل البشرية بجانب التيار الصحيح، وطالما وجدت لدى الإنسان اللغة الأدبية يمكننا توجيهه بهذه اللغة وهناك العواصم الأخلاقية، والضوابط الدينية ثم هناك منطقية الحق ونوره، ونصاعة الخير وسرعة تأثيره في النفوس ثم هناك المثل العليا التى عادة تحتذى ويقف الناس مبهورين بها، منادين بوجوب اتباعها، والمهم أن نوجز في الإنسان الحاسة الأدبية التى هى موازية تماماً للإحساس بالحياة يقول الأستاذ العقاد: "إن الأدب والحياة شيئان نسيجهما من مادة واحدة، فالحياة هى شعور تتملاه في نفسك، وتتأمل آثاره في الكون، وفي نفوس غيرك.

والأدب هو ذلك الشعور ممثلاً في الغالب الذى يلائمه من الكلام، وما احتاج الناس من قبل إلى من يثبت لهم أن الأدب لا يكون بغير حياة ولكنهم يحسبون أنهم بحاجة إلى من يثبت لهم أن الحياة لا تكون بغير أدب مع أن الأمرين بمنزلة واحدة في الحقيقة"[1].

إذن من الضرورى للإنسان أن يحس الحياة من حوله إحساساً صحيحاً وإلا أصبح كالآلة، وإحساسه بالحياة هذا لا يتأتى إلا عن طريق اللغة الأدبية الإنسان كما نعلم ليس عقلاً فقط، ولا هو فكر بحت، بل إنه بجانب العقل

(1) العقاد- مطالعات في الكتب والحياة ص١٦، طبعة بيروت.

المدبر مشاعر حساسة، ومع الفكر المنطلق عواطف جياشة الإنسان كل متكامل إذا ضمر فيه العقل لا يمكنه النهوض، وإذا أضمحل فيه الإحساس أخفق وأصابه عدم التوفيق في الكثير من مناحى الحياة، ونحن في حاجة ماسة إلى تنمية العواطف في الإنسان وإخصاب مشاعره وهذا الجانب إذا أردنا أن نجعله يرتكز على قاعدة صلبة ثابتة مستقرة لن نجد طريقا أسهل إلى ذلك سوى اللغة فبواستطتها ننمى لديه التدين وبها نبث فيه مفاهيم الأخلاق وأى لغة هذه التى هى جديرة بتأدية تلك الوظيفة إنها اللغة الراقية (لغة الأدب) فلغة الرمز والإشارة لا يمكنها النهوض بهذا الجانب الخطر، ولا يمكن أن نلجأ إلى لغة غير لغتنا لتؤدى هذا الأمر فيها لا سواها نربى مدارك الإنسان على العقيدة الدينية وتأدية الشعائر، وبواستطها نغرس فيه السلوك الطيب والأخلاق الفاضلة والقوة في اللغة لا تكمن في أنها ذات فعالية على نفس الإنسان فقط لحظة التلقى بل من الممكن أن تلازمه في كل أطوار حياته لذلك قد يضعف الإنسان وتجنح به نفسه نحو الخطأ، ولكن موروثه اللغوى يظل يلح عليه ملوحا بالمبادئ، ويطل من شرفات ذاكرته مناديا بالقيم مطالبا بتطبيقها، وينبثق من داخله إشعاع منير يهديه في دياجير الحياة.

القلقة المضطربة:

فما إن يصل الإنسان إلى تلك اللحظة القلقة المضطربة حتى يستدعى موروثه اللغوى ليعضده ويشد من أزره قد يتذكر أية قرآنية أو يطل عليه حديث شريف، أو يتمثل له بيت شعرى، أو تتمتم شفته بحكمة من الحكم، أو يتذكر محاورة ممتعة، أو خطبة، أو موعظة مقنعة إلى آخر هذه الأشياء، ولدينا من الأمثلة التاريخية ما يؤيد ذلك فهذا معاوية يوم صفين- حينما اشتدت الحرب يقول:

أردت أن انهزم فذكرت قول ابن الإطنابة:

أبت لى عفتى وحياء نفـــــسى وإقدامى على البطل المشيــح
وإعطائى على المكروه مـــالى وأخذى الحمد بالثمن الربيــح
وقولى كلما جشأت وجاشـــت مكــانك تحمدى أو تستريحى[1].

فمنعنى هذا القول من الفرار، فلكون معاوية لديه القدرة اللغوية التـــى تمكنه من التأثر بهذا الشعر أدى به استرجاعه هذه الأبيات في نفســـه إلـــى الثبات وعدم الفرار.

وتحدثنا المراجع التاريخية أن الحجاج بن يوسف استطاع أن يملك زمام العراقيين ويقضى على الفتنة ويثبت أمر بنى أمية في هذا الجزء المهم مـــن الدولة بخطبة خطبها فيهم إن هى الاعتبارات أدبية راقية صـــادفت نفوســاً ديانة بالأدب خصبة بالأساليب الرائعة فزلزلت هذه الكلمات كيانها وجعلتـــها تركن إلى الوداعة بعد الجموح، وتركن إلى المسالمة بعد الشطط لقد اختـــار الحجاج كلماته اختياراً أرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها وانـــى لقاطفـــها وانى لأنظر إلى الدماء وهى تسيل بين العمائم واللحى[2].

وبالطبع من يقول هذه العبارات على بصيرة بالاساليب المؤثرة، ولديـــه خبرة بالأدب، وهو على دراية بكيفية إثارة الخيال. وتأريث العواطف. وذلك لا يتأتى إلا لمن ملك زمام البيان في مجتمع يصل التعبير الأدبى فيـــه إلـــى

---

(1) الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير)- تاريخ الطبرى- المجلد الثانى- ص١٩٠، دار الكتـــب العلميـــة بيروت.

(2) الطبرى (آبو جعفر محمد بن جرير) تاريخ الطبرى - المجلد الثالث ص ٥٤٧ طبعة دار الكتب العلميـــة - بيروت

مجامع نفوس السابقين، وأزقة قلوبهم. استطرادا مع التاريخ نصل إلى نهاية العصر الأموى حينما قامت ثورة على بنى أمية انصار العباسيين بقيادة (أبو مسلم الخراسانى). لقد استشار (مراوان بن محمد) آخر خلفاء الأمويين كاتبه (عبدالحميد) أى وزيره الإعلامى ، فقال له: سأكفيك أمره وسأكتب له كتابا إذا قرأه سيضطرب وسيؤدى به هذا إلى وقوع الفرقة بين صفوف جيشه ووصل الكتاب إلى أبى مسلم فأمر مسلم بإحراقه دون أن يفضه ويعرف محتواه ومما لاشك فيه ان أبا مسلم كان يعرف ما لأسلوب عبد الحميد من أثر شديد فتاك، وعرف بذكائه أن الكتاب تلى على وزرائه وقواده بث فيهم الفرقة، وشتت شملهم ، وأضعف شوكته ، بل هو نفسه كان ذا مقدرة بلاغية يخشى منها على نفسه أن تتأثر بالكلمة الموجهة وهذه المقدرة البيانية أهلته لأن يقول بعد إحراق الكتاب محا السيف اسطار البلاغة وانتحى عليك لبوث الغاب من كل جانب[1] ويحدثنا تاريخ الدعوة الإسلامية أن بنى تميم حينما وفدوا على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونادوا يا محمد جئنام نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا فقام خطيبهم (عطارد بن حاجب) فقال: الحمدلله الذى له علينا الفضل والمنة إلى آخر ما قال فقال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لثابت بن قيس قم فأجب الرجل فقال:(الحمدلله الذى خلق السموات والارض إلى آخر خطبته .ثم قام شاعر بنى تميم (الزبرقان بن بدر) وقال قصيدته التى أولها:

نحن الكرام فلاحى يعادلنا منا الملوك وفينا تنصب البيع

---

(1) راجع :

محمد عبدالمنعم خفاجى - أعلام الأدب في عصر بنى امية - القاهرة ١٣٧٤هـ - ١٩٥٤ م

ولما فرغ منها أجابه حسان بن ثابت على نفس القافية:

إن الذوائب من فهر وإخوانهم قد بينوا سنة للناس تتبع

فلما اتمها قال (الأقرع بن حابس) رئيس وفد بنى تميم لقومه : وأبى إن هذا الرجل لمؤتى له الخطيبه أخطب من خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا، وأصواتهم أحلى من أصواتنا فأسلموا فأسلم القوم[1] والذى يهمنها هنا هو تأثير الأدب على النفس فبنوتميم لم يقولوا للرسول صلى الله عليه وسلم جئناك لتعرض علينا الإسلام ، أو لتشرح لنا العقيده الجديدة كما أن التاريخ لم يذكر أنهم تحادثوا فى أمر هذا الدين الجديد بل أنهم على طريقة العرب كانوا يتفاخرون إلا أن خطيب النبى وشاعره كان أسلوبهما خاص بالمصطلحات الدينية ، والعبادات الإسلامية وكان افتخارهما بما أنعم به عليهما هذا الدين من إخوة إنسانية ومعرفة بالحقائق الكونية الصحيحة من أن الله سبحانه هو خالق كل شى وإليه المراجع والمآب. وكان قول رئيس الوفد إن خطيب هذا الرجل يعنى الرسول صلى الله عليه وسلم أبرع خطابة وشاعره أعظم شاعرية بل إنه ادخل الناحية الجمالية فى التأثير فقال واصواتهم أحلى من أصواتنا فأسلموا من هذا الجانب وإن كان كل من الخطيب والشاعر تموج في كلاميهما روح الاسلام وتعبيرات القرآن.

ورب قائل يقول : إن التطرف الذى نراه في هذه الفئة التى عقد هذا المؤتمر لينظر في أمرها ناشئ من ابتعادهم عن الدين وليس ناتجاً عن

---

(1) راجع : الطبرى أبو جعفر محمد بن جرير -تاريخ الطبرى - المجلد الثانى ص ١٩٠ دار الكتب لعلمية بيروت وايضاً : سيرة ابن

هشام - الجزء الرابع ص ٥٦٠ وما بعدها مكتبة الحلبى.

ضعف لغتهم فنجيب: إنهم قاموا باسم الدين لكن فهمهم للدين خاطئ ويحضرنى في هذا المقام رأى الأستاذ العقاد في كتابه (الله) مفاده أن النفوس البشرية بطبيعتها تحتاج إلى إشباع روحى وهى تبحث عن غذاء لها تماماً كما يحتاج الجسد الإنسانى للغذاء، وكما أن الجسد قد يشبع بغذاء صالح يفيده كذلك قد يشبع بغذاء فاسد يضره ، فالغذاء الصالح والغذاء الفاسد كلاهما مشبع يفى حاجة المعدة إلى الغذاء ، ويؤدى إلى امتلائها وقهر الإحساس بالجوع غير أن الغذاء الصالح مفيد والضار مهلك . كذلك الأمر بالنسبة للروح فهى تشبع بمفاهيم دينية صالحة نافعة كما أنها تشبع بمفاهيم خاطئة مهلكة[1].

ونحن نرى في بعض المتطرفين – مع الأسف – فهما خاطئاً للدين– وأقول البعض– فليس كل تطرف ناشئ عن توهم أنه يدافع عن قضية دينية بل هناك التطرف بأنواعه والمهم أن كل تطرف نرى صاحبه يفتقر تماماً إلى جانب اللغة الراقية الأدبية التى بواسطتها نتمكن من اصلاح الخلل لديه ونحن نأخذ جانب الأدب من أنه لغة وعظية فقط بل الأدب بكل ميادينه التى تؤدى إلى رقى المجتمع ونهوضه (والنظرية التى تقول بأن علاج النفس خير من اخذها بالوعظ لا تزال تكتسب من يوم إلى يوم أنصاراً جدداً وذلك لأنه ليس من شك في أن الكاتب الجيد الذى يستطيع أن يهز القارئ بما يقص من حوادث، لابد أن يخلف في النفس أثراً لا أراديا وربما كان هذا الأثر هو

(1) راجع – العقاد (الله)

[illegible]

[illegible]

[illegible] باعتبارها [illegible] وتنقيتها [illegible] وليصرف بزداد وايسر [illegible] حينما [illegible] بعض هؤلاء [illegible] يسمع [illegible] من خلال [illegible] بعض أجهزة الإعلام [illegible] أو عرض [illegible] في الصحف . لقد [illegible] من [illegible] لغة [illegible] من قراءة المراجع [illegible] لذلك [illegible] الصفحة التي تلخص كل جهده وفضله . إن المثقف والعلم [illegible] هو الذي [illegible] من [illegible] الرشيقة في الأسلوب [illegible] لغة [illegible] الأسلوب الأدبي وليس الأدب قاصرا على الشعر من [illegible] الشعر [illegible] حر وعمود فالأدب [illegible] كله وفهمه فهما صحيحا [illegible] الأسلوب الذي [illegible] يستطيع [illegible] فيما صحيحا دون مقدرة بعينها توهله للفهم الصحيح في [illegible] الفهم الحسن للحوار مع مجتمعه من حوله ويعبر [illegible] نوعا من [illegible] المجتمع ويكثر فيه الفجوات ويكون من السهل على [illegible] الزلاق نحو الانحراف بل القول بكون حتميا على هذا المجتمع ذلك الانحراف تماما كما تؤدي المقدمات المنطقية إلى النتائج . وأكاد أمزح مريدا من الأنهار سيحدث بعدما قرأت- وحتما ستتم قراءته- في جريدة الأهرام يوم الأربعاء ١٣ يونيه ١٩٩٨ أنه كان هناك اختبار لاختيار مذيعين وتقدم لهذه المسابقة ألف من خريجي جامعتنا والنتيجة لم ينجح أحد وذكرت الجريدة أن أحدهم كانت مصححة مبكية من قبل شر البلية ما يضحك كان هناك سؤال

[illegible]

عن بعض الشخصيات ماذا يعرفه عنها فاجاب البعض إن نجيب محفوظ مخرج وآخر قال توفيق الحكيم صحفى وثالث تحدث عن ديانا بأنها كانت زوجة لريشتارد قلب الأسد وفى مجال المعلومات العامة قال بعضهم نهر النيل ينبع من دمياط ورشيد أن مثل هذه الاجابات تدل على أن هؤلاء لا يقرأون وأعتقد أن ذلك بسبب فقدان القدرة اللغوية على فهم الأسلوب ومن هنا انعدمت لديهم الرغبة فلا اهتمام بالكتاب ولا الكتّاب ولاشغف بالفكر ولا نهم للبلاغة ولا استزادة من المحفوظ الشعرى ولا محبة للاديب فلان. حدثنا الأستاذ على الطنطاوى (أطال الله عمره) أن مجلة الرسالة التى كان يصدرها الأستاذ الزيات منذ أكثر من نصف قرن كانت تصل إلى سوريا يوم الأثنين من كل اسبوع فأطلق هناك على ذلك اليوم يوم الرسالة انظروا إلى هذا الشغف بتلك الأوراق الذى جعلهم يسمون هذا اليوم يوم الرسالة . وحدثنا الدكتور مصطفى ناصف أن مفتش مادة الأحياء دخل على أحد المدرسين وهم طلاب فوجده قد أخطأ خطأ لغوياً في عنوان الدرس فأوقع عليه عقاباً من هنا نجح المجتمع في ذلك الوقت فكانت فيه الأصالة ووجد فيه التماسك وكان هناك الشاعر المهندس على محمود والطبيب الشاعر إبراهيم ناجى والطبيب القصاص يوسف ادريس والكميائى عضو المجمع اللغوى الدكتور أحمد زكى الذى قدم لنا الحقائق العلمية في ثوب أدبى يحدثنا عن جسد الإنسان بعد أن يموت ثم يتحلل ويتحول إلى بخار فيقول إن أبا العلاء قال: خفف الوطأ ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد ولو ادرك الحقيقة لقال:

خفف النشق ما أظن هواء الجواء إلا من هذه الأجساد

ولقد وجدتني نسيت كثيراً من الحقائق العلمية التي درستها ولكنني ظللت متذكراً هذه الحقيقة بسبب تأليف الدكتور أحمد زكي لهذا البيت[1].

اللغة اللغة يا أخواني عليكم باللغة حتى ننقذ مجتمعنا من الشذوذ والانحراف اللغة هي السلاح الناجح للارشاد والافهام والاقناع واخصاب العواطف وبث المفاهيم الدينية والأخلاق بها يتجه المجتمع نحو الثقافة نحو العلم نحو السلام هو السلاح البناء للقضاء على العنف والتطرف. وانتهز هذه الفرصة لاتقدم إلى المسئولين عن هذا المؤتمر أن يعملوا لعقد مؤتمر خاص باللغة الأسباب التي أدت إلى ضعفها لنتلافاها ثم السبل التي ستنهض بها والأهم من ذلك هل لها فعلاً دور في حماية المجتمع من الخطأ والانحراف وأعتقد أن ذلك من أهم الأمور التي ينبغي أخذها في الاعتبار ألا هل بلغت اللهم فاشهد.

---

(1) راجع الدكتور / أحمد زكي - سلطة علمية - مكتبة الفجالة - القاهرة